الفصل الثاني

جوائز تقديرية
وفن ضعيف جدًا!

-١-

لم تعد الجوائز الأدبية أو الثقافية عمومًا، خالية من الغرض والهوى، سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الدولي، فكل جائزة تسعى بصورة ما لتحقيق غايات وأهداف مانحيها، ولكن بعض الجوائز يصعب أن تكون موالية للتصور الإسلامي، أو حريصة على صفوه ونقائه، ومن ثم يمكن تفسير لماذا تفوز هذه الرواية أو لا تفوز؟ وأيضًا يستطيع القارئ الواعي أن يدرك لماذا تفوز رواية ضعيفة وهشّة البنيان بجائزة تقديرية قيمتها كبيرة، تمنحها جهة خاصة ؟.

لاشك أن الفائز بهذه الجائزة أيًا كان مستوى عمله الأدبي سيكون أداة طيعة في يد صاحب الجائزة، أو على الأقل يتغاضى عن أهدافه وغاياته، ولو كانت صادمة للاعتقاد الديني أو القومي أو الوطني.

سأقدّم هنا بإيجاز نموذجًا فاز بالجائزة الكبرى التي تقدمها جهة خاصة تفوق قيمتها جوائز وزارة الثقافة، ويتدفق على الاشتراك فيها أعداد غفيرة من أدباء الحظيرة الثقافية أو غيرهم ممّن يسعون إلى المال أو الشهرة.

اسمه الأصلي محمد

النموذج رواية عنوانها "قسمة الغرماء" لمؤلفها يوسف القعيد (اسمه الأصلي محمد ولكنه اكتفى باسم أبيه!)، طبعت الرواية في دار نشر عربية مقرها بيروت ولندن واسمها: دار الساقي للطباعة والنشر عام ٢٠٠٤ وتشرف عليها سيدة مارونية شديدة التعصب لا تسمح بنشر كتاب واحد يعرّف بالإسلام أو يتعاطف مع قضاياه، ومعظم ما تنشره

من مطبوعات يصب في تشويه الإسلام أو معاداته، فضلًا عن تبنّي الثقافة الغربية الوثنية بصورة شاملة ما يحمد منها وما يعاب. وكاتب الرواية يتردد اسمه في المجال الثقافي الحكومي باستمرار؛ لأنه يخدم السلطة منذ الستينيّات حتى الآن، ولست معنيًا بشخصه ولا فكره إن كان له فكر، وقد نشرت هذا الفصل من قبل في بعض الصحف الإلكترونية دون أن أشير إلى اسمه ولا اسم روايته ولا اسم دار النشر، فالذي يعنيني موضوع الرواية والفن، وهي رواية تخدم أيديولوجيا تشوّه الإسلام وتحاربه من خلال توظيف شخصيات مختلة، ووقائع معاكسة للعقل والمنطق والبناء الروائي، وسأقدّم نصوصًا مقتبسة من الرواية تكشف عن كل ذلك وتثبت توظيف الكاتب روايته لخدمة الأيديولوجيا الطائفية.

بإيجاز تتناول الرواية قصة شخص غير مسلم تعرّض لاضطهاد في عمله بسبب عقيدته، وفي الشركة التي يعمل بها ويملكها آخر غير مسلم أيضًا، قام زملاؤه المسلمون المتعصبون بتهديده والضغط عليه ليترك العمل، ولم يجد مفرًا من الهروب من أسيوط ومعه زوجه وابنه إلى القاهرة، ومنها استطاع الهجرة بمفرده إلى دولة كبرى، ومن هناك كان يرسل إلى زوجه وابنه مبلغًا شهريًا من المال؛ ليعيشا منه، ولأنه هاجر في ظروف غامضة ولم يفصح عن مكانه أو عنوانه في الدولة التي هاجر إليها، فإنه جعل فنانة ذات جذور صعيدية اعتزلت وتحجبت، واسطة بينه وبين زوجه وابنه في توصيل المبلغ الشهري(لماذا؟- الرواية لا تجيب!).

نظرة غير إسلامية

من خلال السياق الروائي نتعرف على السيرة الذاتية لشخصيات الرواية، كل شخصية تحكي الأحداث من وجهة نظرها على غرار الطريقة

السردية التي قدّمها نجيب محفوظ في روايته الشهيرة (ميرامار)، وسايره في هذه الطريقة عدد من الروائيين فيما بعد .

يفترض فنيًا أن يقدّم الكاتب نماذج تقدّم الفكرة من جميع الجهات بحيث تكون الصورة كاملة أو شبه متكاملة، ولكن الأمر في هذه الرواية مختلف، معظم الشخصيات تتبنّي النظرة الرافضة للإسلام أو تراه في صورة مشوّهة لا تتفق وطبيعة الإسلام الحقيقية التي يعرفها العلماء والمتخصصون وعامة المسلمين، الصورة الروائية تمثّل الفهم المنقوص، أو التدين المغشوش، أو الدعاية الرخيصة التي تشهّر بالإسلام والمسلمين، بينما القارئ للرواية لا يستطيع أن يمنع نفسه من التعاطف مع العناصر المقهورة المضطهدة من جانب المسلمين القساة الغلاظ الذين لا يراعون ذمة، ولا يحترمون إنسانية .. !!

نختار فيما يلي بعض المقتبسات من الرواية لنرى رؤيتها لما حولها وللإسلام والمسلمين، مع تعليقات سريعة وخاطفة، تهدف في النهاية إلى بيان كيف يعمل بعضهم من أجل الترويج للكتابات التي تخدم أهدافًا تعصبية غير متسامحة ؟ وتروّج للكتّاب المعادين للإسلام، والموالين لنظريات مادية بائسة.

طالب وفنانة

يقول ماجد، الشخصية الأولى في الرواية وهو طالب غير مسلم في كلية الهندسة جامعة القاهرة، وكان يذهب إلى الفنانة المعتزلة "مُهرة" لاستلام المبلغ الشهري الذي يبعث به والده، ويعيش عليه مع والدته بعد أن هاجر إلى الخارج:

" توقف أمامي أول أتوبيس، كانت اللافتة المعلقة على جانبه بجوار رقمه وبيان الأماكن التي يذهب إليها، تجرح العين: " الإسلام

هو الحل"!. كل الأتوبيسات مغطاة بهذا الكلام(!) ، مكتوب على شكل إعلان، قد تتغير الألوان، وشكل الخط ولكن الجملة واحدة، لا أعرف من المعلن؟ من الذي يدفع قيمة الإعلان؟ جهة؟ مصلحة؟ إنسان؟ حتى تصبح كل الأتوبيسات مغطاة بهذا الكلام؟ أي إسلام؟ وأي حل؟...." (الرواية، ص ٨ – ٩).

هل هذا ممكن أو معقول ؟ كل الأتوبيسات تحمل الشعار الذي يجرح العين " الإسلام هو الحل "؟ ولماذا يجرح العين يا ماجد ؟ أليس تطبيق الإسلام (العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي) ضمانة للمسلم أو غير المسلم؛ كي يعيش في أمان ومساواة؟

يقول ماجد :

"نظرت حولي، ذقون ولحى أينما أدرت وجهي، جلابيب بيضاء بدلًا من البدلات التي كانت أنيقة في زمن مضى وانقضى ولم يعد له وجود....." (ص ٩) .

وما الذي يضيرك يا ماجد(= المؤلف) من اللحى والذقون والجلابيب البيضاء؟ وهل حقًا صارت الدنيا هكذا؟ إنك تكذب يا ماجد لتشوّه صورة الواقع بما يخدم فكرتك التي تكرس اضطهاد المسلمين لغيرهم! ويقول ماجد عن النقاب :

".. والنقاب يحوّل المرأة إلى خيمة من السواد، ذيل الخيمة يجرجر على الأرض وراء المنقبة، فيثير الغبار في الصيف، ويحرك أوراق الشجر الجافة والذابلة على الأرض في الخريف، أما في الشتاء فيختلط بالوحل وطين البرك الذي تركته الأمطار، لا أحب أن أربط بين الربيع والخيام السوداء، إنها ضد فكرة الربيع أصلًا " (ص٩).

لو أنك يا ماجد رأيت الصعيد أيام ولد أبوك لرأيت النساء قبل أن يعلم الناس بأمر الجماعات الإسلامية يلبسن الملس أو الكرك، وهو قماش أسود فيه كرمشات تتغطي به المرأة عند خروجها من قمة الرأس إلى القدمين، وتترك المرأة منه فتحة ضيقة عند العينين لترى به الطريق، وكلما كان الملس كبيرًا ومتعدد الطبقات دلّ على مستوى المرأة الاجتماعي وطبقتها الغنية، وفي حينه لم يتكلم أحد مستنكرًا أو مستهجنًا هذا اللباس. ثم ما الذي يزعجك اليوم من النقاب وبعض النساء يلبسن الميني جيب والهوت شورت والبنطلون المحزّق؟

الاسم ثلاثيًا

يقول ماجد عبود (أو المؤلف) عن اسمه :

".. ماجد عبود . لم أنطق الاسم ثلاثيًا؛ لأن ذلك يحدد كثيرًا من الدلالات لمن يستمعون إليه، الاسم الثنائي حيادي ويمكن أن يطلق على أي إنسان .... " (ص ٢٣).

ينسى ماجد أن غير المسلمين يتخذون الآن أسماء إنجيليه بدلًا من الأسماء المصرية التي كانت شائعة، وحجتهم في ذلك إثبات الولاء لوطنهم الذي احتله المسلمون العرب البدو الغزاة، ويتوهم أن ذكر اسمه ثنائيًا دون أن يشير إلى هويته الدينية، سيحميه من أذي المسلمين وتعصبهم واضطهادهم الظالم. هل يضطهد المسلمون أغنى رجال الأعمال المصريين وبعضهم منح مؤلف روايتك الجائزة التقديرية أم جعلوه ملياريرًا، وأتاحوا له فرصة الزحف؛ ليتولّى ترتيبًا متقدمًا بين ملياريرات العالم؟

..يتحدث ماجد عن لحم الخنزير الذي لم يذقه منذ فترة طويلة مع بقية اللحوم بسبب الفقر :

"قالت أمي : إن بعض فقراء المسلمين يشترونه لرخص ثمنه (؟)، بعد ارتفاع أسعار اللحوم الأخرى برغم أن قرآنهم يحرّمه تحريمًا صريحًا " (ص ٢٥) .

ويقول ماجد وهو عند العمارة التي تسكن فيها الفنانة المعتزلة :

" ألقيت على المجذوب الحارس: سعيدة " يا شيخ ". رد عليّ متضاحكًا : سعيدة عليكم ورحمة الله وبركاته يا مقدس يا صغير" (ص ٣٨).

أليس هذا اعترافًا بتسامح الشعب المصري يا ماجد؟ المجذوب يرد بمزاح حميم لا غضاضة فيه، ولا أثر لادعاءات المتعصبين التي يرددونها عن الاضطهاد والتمييز والحرمان!

- ٢ -
صاحبة مزاج

يقول ماجد في الرواية الفائزة بجائزة تقديرية كبرى، معبرًا عن وجهة نظره في الحجاب الذي وصل إلى الفنانة الجميلة "مُهرة" وقادها إلى الاعتزال:

"أسرّ لنفسي : يبدو أن الست مهرة كانت صاحبة مزاج في زمن مضى، قبل أن تصل إليها شوطة الحجاب (؟).. تحسرت ؛ لأنني لم أعرفها عندما كان مزاجها عاليًا.." (ص ٤٦) .

لماذا تعدّ الحجاب شوطة يا ماجد؟ وهل ترى حجاب الراهبات الذي يضفي عليهن وقارًا واحترامًا شوطة، أو وباء يجب أن يحترسن منه ؟ حلال للراهبات حرام على المسلمات؟ ولنترك تحسرك على عدم اللحاق بها أيام كانت "صاحبة مزاج"، فالمؤلف أعطاك الفرصة فيما بعد ليشفي غليله من كل أثر للإسلام!

وننتقل إلى شخصية أخرى من شخصيات الرواية التي تتبنى المنظور الطائفي المتمرد، وهي شخصية المجذوب الذي أطلقت عليه الرواية الجنرال "عفارم" ، وكان يشغل وظيفة مرموقة في الدولة، ولكن حبه أو هيامه بالفنانة "مُهرة" جعله يتخلّى عن منصبه ومكانته، ويتحوّل من محامٍ وقاضٍ ومستشار يشار إليه بالبنان إلى مجذوب يرتدي ثياب جنرال الحسين الذي يزين صدره بالأوسمة والنياشين المصنوعة من أغطية زجاجات المياه الغازية، ويمشي كأنه تائه بسبب الحب الذي اشتعل في قلبه للفنانة مهرة قبل اعتزالها وبعده، وكان أمرًا طبيعيًا، ألا يفكر إلا في

محبوبته التي يطاردها في كل مكان، ويرابط على باب عمارتها ليلًا ونهارًا.

وأقوال الجنرال عفارم يبدو فيها الخلط والغرابة، وسرده هو السرد الوحيد في الرواية الذي يأتي متضمنًا لآيات قرآنية وأحاديث نبوية لا علاقة لها في الغالب بالسياق أو الأحداث، ومن أقواله:

" أطلقت لحيتي التي غطت صدري، وأطلقت شاربي، وتركت سوالفي، هكذا أشار عليّ الحلاق، وهو حلاق ملتحٍ، أصبح شعري متروكًا، لينمو في أي اتجاه وكيفما شاء، لبست الجلباب، وأصبح شعاري: الشيوخ هم الحل .." (ص ٦٦).

لم يقل لنا الجنرال عفارم من يقصد بالشيوخ: هل هم شيوخ السلطة ؟ أو أي شيوخ آخرين ؟ وكيف يقدمون له الحل الأمثل في حبه أو حياته أو حياة الناس؟

ولكن فخامة الجنرال عفارم يقدّم لنا الحكمة العاقلة جدًا، التي تكشف عن فيلسوف في كامل وعيه، فيناقش قضايا الفساد والإرهاب، على طريقة الممثل عادل إمام في أفلامه التي يغازل بها السلطة، ويقدّم من خلالها الإسلام في صورة دموية بشعة:

".. خطران: الإرهاب أو الفساد، حملة المدافع يرهبون من يتصورون أنه عدو الله مع أنهم أعداؤه، والذين يسكنون القصور يرفلون في ناتج الفساد وعوائده، يوزعون أنجر الفتة على أنفسهم، ليس بالتساوي، ولكن حسب استحقاق كل منهم ..... الإرهابي يحتاج إلى الفاسد حتى يكون مبررًا لإطلاق مدفعه، والفاسد في أمس الحاجة إلى الإرهابي حتى يغطي على فساده، لو لم يوجد الإرهابي لاخترعه الفاسد، ولو لم يوجد الفاسد لصنعه الإرهابي...." (ص ٦٨).

العمل الناعم

وهل يحتاج الإرهـابي- يا جنرال- إلى المدفع كي يتحالف مع الفاسد؟ إنهما ليسا بحاجة إلى مدافع قدر حاجتهما إلى العمل الناعم لنهب البلد في هدوء، ونشر الفساد في هدوء، وتفجير البلد في هدوء هكذا يفعل الفاسدون على الأقل، فما حاجتهم إلى المدافع؟ وهل صار الإسلاميون جميعًا حملة مدافع؟ أليس فيهم رجل يخشى الله؟ ثم من هو الإرهابي المتطرف، أليس مجرما مثله مثل غيره؟ وهل من الضروري أن يكون الإرهابي متدينًا ومرتديًا للغترة والجلباب وله لحية وعلى وجهه كآبة العالم وغضبه؟

ملايين المسلمين لا يعرفون الإرهاب ولا يحبون الدم، ولكن الجنرال عفارم بتوصية من المؤلف، وتقليدًا لعادل إمام جعل المسلمين إرهابيين يتحالفون مع تجار الحديد والخردة ومحتكري السلع الاستراتيجية من أقطاب الحزب الحاكم!

أما الفنانة المعتزلة " مُهرة "، فقد عاشت في الظل، وتآكلت مدخراتها، أو ضاعت في شركة توظيف أموال، يدعي صاحبها الإسلام ولحيته تطال الأرض، ويحب النساء، وخاصة من ذوات اللحم الأبيض الشهيرات، ويدفع مقابل ذلك شيئًا كثيرًا، فإنها تبدي رفضها لمصادقة مثل هذا الرجل من منطلق ذاتي وليس من منطلق إسلامي يرفض الانحراف والفساد، وكل ما يخالف الفطرة، فتقول الفنانة:

" الفن الذي يجعل الفنانة تصادق، أقصد ترافق صاحب شركة توظيف أموال، أو تتزوج برجل تصل لحيته إلى الأرض... يِفْتح الله " (ص ٩٠).

ثم ترى الفنانة أن الجماعات الإسلامية تترصدها وتهددها، وتهدد أهل الفن جميعًا بالموت الزؤام ؛ لأن الفن في مفهوم الإسلاميين جميعًا حرام! تقول مهرة:

" وجاءت تهديدات حراس الضمائر، من يقولون عن أنفسهم ديدبانات الروح، تهديدات موجّهة إليّ وإلى أهل الفن عمومًا، والفنانات منهن على وجه الخصوص، بدأ دبيب الخوف يتسلل إلى روحي ..." (ص٩٣).

عبد المنعم مدبولي

يذكر التاريخ القريب أن الإمام الشهيد حسن البنا أنشأ فرقة مسرحية، وأن شقيقه عبد الرحمن كان يؤلّف لها المسرحيات، وكان من أبرز نجومها الفنان الراحل عبد المنعم مدبولي. كما يذكر التاريخ حكاية مقابلة بين الإمام الشهيد حسن البنا أيضًا والفنان الراحل أنور وجدي، أخبره فيها أن الفن الذي يدعو إلى الفضائل والأخلاق، يوافق عليه الإسلام، ويتفق مع الدعوة الإسلامية.. بيد أن الفنانة المعتزلة مهرة، التي ارتدت الحجاب على غير رغبة منها كما تشير أحداث الرواية، تتكلم بغضاضة عمن تسمّيهم ديدبانات الروح أو حراس الضمير، ولا أدري هل لهؤلاء وجود حقيقي في الواقع يشكّل منهم ظاهرة تحتشد لها رواية على امتداد ما يقرب من خمسين ومائتي صفحة؟ أو إنه مجرد اختلاق صنعه أعداء الإسلام، والعاملون لمحوه وإلغائه واستئصاله لتشويه صورته وصورة المنتمين إليه؟.

وهناك سؤال للفنانة السابقة مهرة: أين كان عقلها أو إرادتها عندما اعتزلت وتحجبت؟ هل كانت مدينة لأحد بشيء يجعلها تستسلم

للعزلة والحجاب؟ ولنفترض أن هناك جماعة أرغمتها على ذلك، ألم تكن تستطيع أن تستعين بمن يحميها ويساندها لتحافظ على شخصيتها السافرة المتحررة، وخاصة أنها كانت متزوجة من ضابط كبير؟ إنها لم تقنعنا فنيًا ولا فكريًا بمأساتها المفتعلة.

نتوقف قليلًا عند هذا الحد مؤقتًا من هجاء مهرة لمن تراهم حرّاس الضمير وديدبانات الروح، فضلًا عن مأساتها المفتعلة، لنرى الجانب الآخر من الصورة عند الست "مرام" والدة الطالب غير المسلم "ماجد عبود"، ورؤيتها (أو رؤية المؤلف بمعنى أدق) للمسلمين، وليس الجماعات الإسلامية وحدها، تقول بعد انتقالها مع ولدها إلى القاهرة، وإقامتها في غرفة صغيرة بأحد الفنادق المتواضعة:

صلاة الجمعة حاضرًا؟!

"يوم الجمعة الماضي صعد إليّ شخص لا أعرفه لحظة صلاة الجمعة سألني: لماذا لا يصلي المحروس ابني الجمعة حاضرًا؟ سكتُّ ولم أرد عليه. احترت ماذا أقول له، انصرف وهو يتمتم تمتمة لم أفهم منها حرفًا واحدًا، رأيت فقط لحيته الكثيفة تتحرك في غضب، قلت لنفسي: حيرتنا من المسلمين لا حدود لها، إن علّقت الصليب في مكان ظاهر غضبوا، وسمعت تمتمة في كل مكان أذهب إليه، وإن أخفيته صعد إليّ وطلب صلاة ابني الجمعة حاضرًا، بطريقة فيها تهديد ووعيد، الصليب الذهب بعته أكلنا بثمنه، هل أحضر صليبًا من الخشب أعلّقه على باب الغرفة ؟! لم يبق سوى هذا" (ص ١١١).

هل هذا الأمر له وجود فعلي في واقع مصر المسلمة أم إنه افتراء من الشخصية الروائية غير الإسلامية على المسلمين؟

وتؤكد السيدة مرام تحاملها على المسلمين من خلال اختيار سكن لأسرتها غير المسلمة، قال لها ماجد: إنه تجنّب الأحياء الغالية التي يكثر فيها السياح العرب، حيث يكون للهواء سعر (وهذا أمر طبيعي)، ولكنه يباغتنا نحن القرّاء حين نعلم أنه "تجنّب الأحياء ذات الطابع الإسلامي إيثارًا للسلامة، قال لي إن أول شبرا – يقصد تجمع غير المسلمين في هذه المنطقة أكثر من غيرها – الأكثر أمانًا بالنسبة إلينا.." (ص ١١٢).

وواضح أن رؤية القوم من خلال أسرة ماجد عبود رؤية انعزالية انفصالية قائمة على الكراهية والرفض للآخر الذي يمثل الأغلبية الساحقة لأسباب مختلقة ووهمية في معظمها على الأقل، وهو ما تلح عليه السيدة مرام في بقية أجزاء الحكاية.

-٣-
الفرمان العثماني

تتابع السيدة " مرام "، والدة ماجد عبود، سرد جوانب من حياتها في سياق حديثها عن واقعها الجديد في القاهرة، وتعود زمنيًا إلى الفترة التي قضتها في أسيوط، فتشير إلى رؤية المسلمين للمدارس التي أنشأها الغرب الاستعماري في العاصمة وبعض المدن المصرية الكبيرة، فتقول :

" عملت بالتدريس في مدرسة من مدارس الإرساليات الأجنبية التي يقول عنها المسلمون "مدارس التبشير المسيحي" في الصعيد، مرتباتها جيدة برغم ما يقال عن الطابع التطوعي للعمل فيها، والطلاب أغلبهم من المسيحيين(؟) .." (ص ١١٨ – ١١٩).

ويبدو أن السيدة مرام لا تعلم أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت طوال القرن التاسع عشر تستغيث بالخليفة العثماني؛ ليمنع المنصّرين الكاثوليك والبروتستانت من تحويل الأرثوذكس إلى مذهبيهما، فصدر الفرمان العثماني المسمّى بالخط الهمايوني لحماية نصارى مصر من التنصير الغربي، وعرفت المدارس التي أقاموها بمدارس التبشير المسيحي لدى المسلمين والنصارى على حد سواء، ولكن القوم هنا يتجاهلون ذلك، بل يغالطون ويكذبون ويبتزون، وهو ما أنتج جيلًا مسكونًا بالتعصب والانعزالية والانفصالية وكراهية شركاء الوطن، وفقًا لمنهج مدارس الأحد وجماعة الأمة القبطية، وفكرة الشهادة التي أرساها رئيس الكنيسة الراحل (شنودة) منذ جلوسه على كرسي مار مرقص عام ١٩٧١م.

الزوج المهاجر

وتتحدث السيدة مرام عن زوجها المهاجر، وقصة هروبه بجلده وفقًا لتعبيرها في الرواية، واهتمام الصحافة الغربية بحكايته المفتعلة وتصويره ضحية للمسلمين الإرهابيين الذي يضطهدون غيرهم، ويتعاملون معهم بمنتهى القسوة والوحشية: "منحته الصحافة العالمية أسماء جديدة : " المبعد "، " المطرود "، " المسيحي الذي أبعده المسلمون عن بلده "، " الهارب من إرهاب المتطرفين في مصر ". وراء كل مبعد قصة، وهذه حكاية لمن تمكّن من الفرار بجلده في اللحظة الأخيرة" (ص ١٢٢).

وتصور السيدة مرام قسوة المسلمين (وليس الجماعات) على غيرهم، عبر تهديداتهم التي لا تنقطع، وتقارن بين حال زوجها الذي هرب وحالها مع ابنها وهما يتعرضان لهمجية المسلمين، الذين تركوا زوجها يهرب دون أن يمسه سوء..(كيف؟) وهل هذا الأمر مقنع فنيًا ؟ تقول السيدة مرام :

" عاودت التهديدات وصولها إلينا، كأن التاريخ المرّ يصر أن يعود من جديد، ما جرى مع عبود وكان يحكيه لي، ها هو يجري معي ومع ابنه، حالته أفضل منا، يملك وسائل الهروب أما نحن، فأمامنا التهديدات ووراءنا التهديدات. هددوني بخطف ماجد وهو عائد من مدرسته، وخوّفوني بإلقاء ماء النار على وجهي، أسلوب العصا... والعصا!" (ص ١٢٣).

وفي سياق تحليل السيدة مرام لهروب زوجها ونجاته من الاضطهاد الإسلامي، وضحكه عليها وعلى ابنها، دون أن تتحرك لديه غريزة الأبوة على الأقل بالعطف على أسرته، فتشير إلى نذالته الضمنية، ومحاولة التعلل بالاستعداد لاستقبال الزوجة وولدها، ولكن الأخطر من ذلك هو الحديث عن عدد غير المسلمين الذين تقصر عليهم صفة الأقباط، مع أن

كل سكان مصر مسلمين ونصارى وغيرهم أقباط، فتقول إنهم اثنا عشر مليونًا(يقولون الآن: إنهم أكثر من عشرين مليونًا!):

" مرت أيام وأسابيع وشهور وسنوات، ولم ينته من ترتيب أحواله! يضحك على من؟ حتى لو كان يستعد لاستقبال أقباط مصر جميعًا، الاثني عشر مليون قبطي الذين يعيشون في البر، ما احتاج إلى كل هذا الوقت!!..." (ص ١٢٧).

إقناع بالقوة

وبلا شك فمرام هنا صوت للكاتب، وهي صوت زاعق وفج وكاذب أيضًا؛ لأن مؤسسة بيو الأميركية ثم الفاتيكان، قد حسما مسألة عدد غير المسلمين الذي لا يتجاوز أربعة ملايين ونصف مليون، تجمع كل الطوائف المسيحية بمذاهبها المتعددة، فإذا افترضنا أن الكاثوليك يبلغون مليونًا، والبروتستانت يبلغون ربع مليون، وأتباع مكسيموس الذين يتزايدون باستمرار قد وصلوا إلى مائة وخمسين ألفًا عدا بقية الطوائف ، فإن أتباع كنيسة شنودة التي تدعي الاضطهاد وتريد أن تفرض إرادتها على الأمة كلها بما فيها الطوائف المسيحية المخالفة، وترى أن المسلمين غـزاة، وأن العرب بدو متخلفون.. يبلغ عدد أتباعها ثلاثة ملايين على الأكثر ، ولكن يبدو أن مرام أو مؤلف الرواية أراد أن يقنع القارئ بالقوة أن القوم قوة هائلة ينبغي الخضوع لها بحكم العدد، وليس بأخلاق الإسلام التي تحض على البر بغير المسلمين، والإحسان إليهم، والعدل معهم ؛ طالما لم يقاتلونا، ولم يخرجونا من بيوتنا وأراضينا ، ولم يسيئوا إلينا.. ولكن للكاتب رأيًا آخر، أو للسيدة مرام رأيًا آخر !

وهذه السيدة فيما يبدو حريصة على انتقاد السلطة أيضًا ، وليس عامة المسلمين وحدهم، فهي تستنكر ضمنًا عدم منح لقب الأم المثالية لامرأة مسيحية في الاحتفال السنوي بيوم الأم في شهر مارس، وهو استنكار نؤيده بكل قوة ؛ فالمرأة- أي امرأة- تستحق اللقب إذا أثبتت أنها أوقفت حياتها على أولادها، وضحّت من أجلهم في غيبة الأب، ولكن واقع الحال يشير إلى أن أغلبية النصارى إن لم يكن كلهم يعيشون حياة مريحة، وأن الكنيسة تتكفل بالفقراء والمحتاجين، فيحيون حياة جيدة بالقياس إلى المسلمين الذي يعيش أغلبهم تحت خط الفقر، كما تقول التقارير الدولية والمحلية، تقول السيدة مرام في غمزة يظهر فيها صوت الكاتب مع أنه يحاول إخفاءه ، ولكنه لا يستطيع :

" تربية ماجد تعطيني الحق في لقب الأم المثالية على البر كله، هل سبق أن كانت الأم المثالية من ديانتي نفسها ؟ لست متأكدة من ذلك ؟ " (ص ١٣١).

وفي كل الأحوال تنسى السيدة مرام أنها لم تعان إلا شهورًا قليلة أو ما يقرب من سنة، عقب انتقالها من أسيوط إلى القاهرة، ثم هجرة زوجها الذي ضحك عليها وعلى ابنه، ولو أنها عانت مثل بقية النساء المسلمات الفقيرات المكافحات سنوات طويلة تؤكد بطولتها؛ لكنت من أوائل الذين يطالبون بمنحها اللقب المأمول .

مربية مسلمة!

إن السيدة مرام تنطق بلغة أخرى غير اللغة الطبيعية لامرأة في مثل حياتها، نشأت في بيئة الصعيد الطيبة المتسامحة المتضامنة في السراء والضراء، بدليل أنها تدعي أمورًا لا وجود لها في الواقع، هل يتصور أحد

أن يقوم المسلمون بسكب البنزين على بيت النصراني وحرقه في وضح النهار؛ لأنه استعان بمربية مسلمة لابنه؟ هل المسلمون يتعاملون مع غيرهم بمنطق الولاية؟ إن السيدة مرام تنطق بصوت الكاتب الزاعق المتحامل، فتقول :

".. فهل أجرؤ على إحضار مربية مسلمة ؟ لو فعلت هذا لسكبوا البنزين على بيتي وأحرقوه في عز النهار ، ولامتنع الجميع عن إطفاء النيران (؟). هل سأعود إلى عنب ديبة؟ إلى حكاية والد ماجد، ومشكلته في عمله ، إلى السؤال القديم: ولاية من على من ؟!" (ص ١٣٢) .

وتذهب السيدة مرام إلى أبعد من ذلك التحامل والادعاء الكاذب، فتري أن أصحاب الذقون أو " السنّية " سبب كل ما حل بالنصارى وبالبلد، إنهم رمز الدم، وهم يشبهون الأفاعي والثعابين، ويذكّرها الأذان بهم خمس مرات في اليوم:

" شاهدت أصحاب الذقون، الذين يسمّيهم الناس " السنّية "، أعتبرهم السبب في كل ما حلّ بنا، طردوا عبود خارج الحدود، وتسبّبوا في هجرتي إلى حيث أعيش، وأوصلونا إلى حالنا، هم السبب في كل ما جرى في البلد، مجرد وجودهم يصبغ السماء بلون الدم، عندما أنام أحلم بهم، على شكل أفاع وثعابين، أستيقظ من نومي قلقة من كوابيسهم التي تأتيني، أحاول نسيانهم، صوت الأذان الذي لا مفر منه، ويتكرر خمس مرات في اليوم، يذكّرني بهم" (ص ١٣٤ – ١٣٥).

إلى هذا الحد يا مرام ؟ أو من يقف وراء مرام ؟ يصبح الأذان الذي سمعه النصارى على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان، رمزًا للقتلة والسفاحين والأفاعي والثعابين ؟

- ٤ -
حكاية الولاية

وإذا كانت السيدة مرام قد ارتفع صوتها، فكشف عن صوت الكاتب المسلم (واسمه الأصلي محمد وليس يوسف، فهو اسم أبيه في حقيقة الأمر) الذي لا يعجبه الإسلام ولا المسلمين، ولا يرى فيهم غير قتلة وسفاحين وأفاع وثعابين، فإن صوت زوجها المهندس عبود يمثل الوجه الآخر لتعصبها وتحاملها وادعاءاتها على شعب مصر المسلم المظلوم، ويعيد الزوج حكاية الولاية مرة أخرى، وهي الحكاية التي يتهم بها المسلمون المضطهدون- بكسر الهاء- للنصارى، في العمل وخارجه، والمفارقة أنه يضطهد وهو مسيحي في شركة يملكها ويديرها مسيحي (!) هل هذا ممكن عقلًا؟ وهل يمكن تسويغه فنيًا؟ الرواية رأت أنه معقول ومسوّغ، وقدّمته مع مجافاته للعقل والمنطق معًا، يقول عبود:

"جاءت إلى الإدارة خطابات مجهولة تتكلم عن الولاية تقول إنه لا ولاية لمسيحي على مسلم " هكذا أمرنا الإسلام " كنت المقصود بالخطابات، صاحب الشركة مسيحي مثلي، قالوا إنه صاحب المال، وهذا يعطيه الحق في الولاية، أما أنا فكيف أكون رئيسا عليهم؟ دخلت الشركة بعدهم، أقدمية بعضهم في العمل، تماثل سنوات عمري كلها، فكيف أصدر الأوامر وأشخط وأنتر وأتحكم؟ قلت لهم: لسنا في مصلحة حكومية، لسنا في بوسطة مصر العمومية حتى ندخل الأقدمية في مفردات كلامنا ..." (ص ١٤١ – ١٤٢).

هل إصدار الأوامر يقتضي الشخط والنتر والتحكم؟ هل هذه أساليب الإدارة بالمعنى المجرد من أي توجه ديني؟ وهل الإداري الناجح يشخط وينتر ويتحكم في أشخاص هو بالنسبة لهم في عمر الحفيد أو الابن؟ هل هذه أخلاق المسيح التي تربّى عليها؟ إنه شخص يحتاج إلى تربية!

منهج مشترك

ويمضي عبود على هذا النهج في إثبات أن الاضطهاد لغة عامة، ومنهج مشترك بين المسلمين جميعًا وليس بعضهم، أيضًا فإنه يؤكد على فصامية المسلمين بين القول والفعل، بل إنهم لا يملكون فعلًا من أساسه، إنهم لا يملكون غير الكلام في المفيد وغير المفيد. ويستشهد على ذلك بقولهم إن نوم الظالم عبادة، ويرتب عليه أنهم يستسلمون للظلمة، مع أنهم يعلمون أن الظالم يستطيع أن يمارس الظلم وهو نائم، وينسي عبود أو من يكتب على لسانه أن المثل الذي ذكره عن نوم الظالم يضرب عادة في مجال تدليل الأطفال المشاغبين، الذين يستريح منهم أهلوهم حينما ينامون، فيهتفون بالقول المعبر ضمنًا عن الحب للأبناء: نوم الظالم عبادة، ولتقرأ ما جاء على لسان المهندس عبود عن المعتدين المسلمين:

" حاولوا استفزازي أكثر من مرة، لاحظت أن التصرفات ليست فردية، لم يكن لديّ دليل على أن هناك تخطيطًا ما أو مؤامرة ما، لم أتوصل إلى أي خيط يمكن البدء من نهايته وصولًا إلى بداياته، ليتضح عندها التخطيط والوصول إلى الرأس المدبر، العاملون تحت رئاستي، امتنعوا عن العمل وقت الصلاة، مع أنني أسمعهم يقولون: إن دينهم يعتبر العمل عبادة، ما أكثر ما يقولون! هل في حياتهم سوى الكلام؟ سواء

في الفاضية أو في المليانة؟ ألا يقولون عن الذي ينام كثيرًا منهم ، إن نوم الظالم عبادة ؟....“ (ص ١٤٣ – ١٤٤).

ويذهب عبود إلى تأكيد أن المسلمين ظالمون، مع أنهم أكثر من يتحدث عن الظلم، وهي مقولة غريبة، وإلا فكيف يكون المظلوم ظالمًا؟ إن الشعب المصري في أغلبه مظلوم ومقهور(أغلبيته فقيرة، ونسبة منه تقرب من النصف تعيش تحت خط الفقر)، يقول عبود عن المسلمين، مؤكدًا رأيه:

” هم أكثر من يتحدث عن الظلم مع أنهم أكثر الناس ظلمًا “ (ص ١٤٥).

الصلاة بسيطة

ثم تأمّل تصويره للمسلمين وهم يؤدون الصلاة في المكتب، وهو تصوير غير صحيح ؛ لأنه يشير إلى أن عبود، أو من ينطقه لم ير المسلمين وهم يصلون أبدًا، أو لم يستوعب كيف تكون الصلاة بسيطة، وبعيدة عن الوضع الذي قدّمه لنا عبود في الرواية، من أنهم يقدمون كبير السن غزير اللحية صاحب الزبيبة طويل السبحة أو المسبحة، فالذي يتقدم للإمامة هو الأحفظ للقرآن، وإذا تساوى المصلون فيقدّم الأسنّ، أما اللحية والزبيبة ؛ يا عبود أو من يقف وراءك؛ فلا اعتبار لها في هذا السياق، وكون الإمام يختار الآيات التي تؤذي مشاعر السيد عبود المسيحي، فهو ادعاء باطل وكاذب ولا أساس له من الصواب أو الصحة؛ لأن آيات القرآن الكريم التي تتناول السيد المسيح أو أمه السيدة مريم، تضعهما في أعلى مراتب التكريم والاحترام التي لا يوجد لها مثيل في الإنجيل نفسه ولست في موضع إيرادها؛ لأن النصارى يعلمونها قبل المسلمين في مصر والبلاد العربية، ويشير القرآن الكريم بصورة عامة إلى أهل الكتاب (النصارى واليهود) بأنهم ليسوا

سواء، أي ليسوا جميعًا مثل بعضهم في موقفهم من الإيمان والإسلام والمسلمين، فمنهم المعتدلون ومنهم المنحرفون، وهناك آيات تكفّر من يؤلهون المسيح عيسى بن مريم، أو من يرون الله ثالث ثلاثة، وهذه أصول معروفة في أصول العقيدة الإسلامية يعرفها النصارى والمسلمون منذ بدء الدعوة، فأي إساءة وأي إيذاء لمشاعر السيد عبود . ثم هناك نقطة مهمة أغفلها من أنطق السيد عبود بهذا الكلام الفاسد الكاذب عن صلاة المسلمين، تتمثل هذه النقطة في أن المسلمين لا يستطيعون سوى صلاة الظهر فقط في أثناء العمل، وهي صلاة سرية، أي لا يجهر فيها المصلون بالقراءة، فكيف عرف السيد عبود أنهم يقرؤون آيات تسيء إليه وإلى دينه؟

وعلى فرض أن الشركة تعمل حتى الساعة الخامسة، فإن صلاة العصر التي تأتي بعد صلاة الظهر بنحو ثلاث ساعات تقريبًا، هي صلاة سرية أيضًا .. والسؤال هل يعملون في الشركة إلى ما بعد العشاء كي يستمع السيد عبود إلى الصلاة الجهرية؟

ليت عبود أو من أنطقه راجع نفسه؛ كي يقدّم أكاذيبه بطريقة مقنعة فنيًا وواقعيًا، ولكنها حمأة الكراهية للإسلام وأهله، هي التي دفعت المهندس عبود إلى القول واصفًا صلاة زملائه المسلمين:

"يؤمّهم أكبرهم سنًّا، وأغزرهم ذقنًا، وأكبرهم زبيبة (كذا!) ، وأطولهم سبحة، ويختار من آيات كتابهم كل ما يمكن أن يؤذي شعوري، يختار الآيات التي تتكلم عن السيدة العذراء، وعن السيد المسيح، نصحني أصحاب الشركة بسد أذنيّ...." (ص ١٤٤).

تزعجه اللحية

واضح أن السيد عبود تغرقه أوهام التعصب ضد الإسلام، فلا يرى في الإسلام والمسلمين إلا كل ما هو قبيح ودميم، فتزعجه اللحية وتنغص عليه حياته، لدرجة أنه لا يرى في إطلاق اللحية إلا قذارة، ويتناسى السيد عبود النصراني أن الآباء والكهنة والقساوسة والشمامسة وربما غيرهم من النصارى يطلقون لحاهم الطويلة التي لا يقربها الماء تأسيًا بالرهبان والزهاد في المسيحية الذين يرون التقشف والزهد في عدم الاغتسال أو التعامل مع الماء! فلنصغ إلى السيد عبود وهو يتحدث عن اللحية:

" أعدائي كثيرون ومسؤول الشؤون القانونية ملتحٍ ؛ كيف فات صاحب الشركة ذلك؟ إخراجه من العمل مثل خلع درسٍ العقل الآن، إطلاق اللحية قذارة، ولكن من يجرؤ على قول ذلك علنًا؟ " (ص ١٤٧) .

إن السيد عبود يبدو أشد تعصبًا من المسلمين الذين يتحدث عنهم في الرواية، كيف لا يقبل أن يكون مسؤول الشؤون القانونية ملتحيًا؟ وماذا يضيره من اللحية؟ ولماذا يريد إخراج صاحبها من العمل ويقطع رزقه؟ هل هذه أخلاق التسامح والمحبة التي يحض عليها المسيح ؟

إن التعصب لا يترك له مجالًا للموضوعية، أو التفكير العقلاني، بل بدا موتورًا ضمن منظومة من الإحساس الهستيري بالاضطهاد الموهوم أو المزعوم، لدرجة أن يقول:

"أصبحت رمزًا لما يجب عليهم- أصحاب اللحى والذقون- محاربته ... كان عليّ أن أشد الرحال إلى أرض أخرى ... " (ص ١٥٠).

أخفى الخبر

لقد شدّ الرحال ببساطة شديدة، وقف في الطوابير أمام السفارة في قلب القاهرة، ولم يقل له أحد لماذا تقف هنا، وتجوّل في القاهرة الواسعة دون أن يستوقفه أحد ويقول له: إلى أين أنت ذاهب؟ وعبر المطار إلى الطائرة دون أن يستوقفه ضابط الجوازات أو حرس المطار، لقد سافر في هدوء، وأخفى الخبر عن زوجه وابنه اللذين لا يريدهما معه؛ ليعيش في أرض الأحلام وحده أو مع من يحب، على حساب بلاده التي أساء إليها، وشعبه المسلم الذي أهانه وخانه في بلاد الغزاة المستعمرين!

ومع ذلك وجد في نفسه الجرأة ليدعي كذبًا القول :

" التهديد في كل شبر نذهب إليه(؟)" (ص١٥٢).

وإني أسأله، وأسأل من ينطقه: لماذا لم يتبعك بقية النصارى، وعلى رأسهم وزير المالية الأسبق يوسف بطرس غالي الذي توعّد من يمتنع عن دفع الضريبة من الشعب المصري المسلم البائس بأنه " حيطلّع دينه "؟

-٥-
مهرة تهجو

كان يفترض أن تكون الفنانة المعتزلة مهرة أقرب إلى التعبير الصحيح عن الإسلام، بحكم أن أغلبية الفنانات المحجبات المعتزلات أو اللاتي ما زلن يمارسن العمل، يعشن حياة طيبة مستقرة، صحيح أنها لم تكن بالبذخ الذي كانت عليه يوم كن يعرضن مفاتنهن على الشاشات أو المسارح، ولكنها حياة مستورة في مجملها، يسعدن فيها مع الزوج أو الأولاد أو العائلة الكبرى، وهن معروفات بالاسم، صحيح أن عددًا منهن أقل من أصابع اليد الواحدة تراجع عن الحجاب، وقيل في شأنه ما قيل، ولكنه لا يقاس عليه، ومنهن مهرة التي لا تمثل الأغلبية من المحجبات السعيدات، ولكنها للأسف الشديد تمثل في الرواية الصوت الذي يهجو الحجاب وقيم الإسلام، ويعد الحجاب سبب البلاء، تقول مهرة :

"حياتي ابتداء من الحجاب الذي حجب الرؤية عن عقلي، في لحظة لا أعرف متى ولا كيف تمّ فيها، وانتهاء بالأزمة المالية الخانقة التي لا أعرف كيف أخرج منها" (ص ١٦٦).

لم تقل لنا الفنانة مهرة لماذا حجب الحجاب الرؤية عن عقلها ولا كيف ؟ ولكنها تؤكد على أزمتها المالية الخانقة من خلال هجائها للحجاب الذي لا تدري كيف دخلت في تجربته، ولا تعرف- كما تقول- كيف تخرج منه، وكأن خلعه يمثل معضلة لها، ثم تواصل الهجاء للحجاب الذي صار علامة على أزمتها، وتضيف إليه مشكلة أخرى

طلبوا منها – أي الجماعة الدموية التي تنتسب إلى الإسلام وفقًا للرواية – أن تتكلم اللغة العربية الفصحى، وكأن الفصحى عار يجب أن تتبرأ منه الأمة وليس السيدة الفنانة مهرة وحدها، التي تخبرنا في الرواية :

" كنت مسروقة من نفسي ، نشلوا مهرة من مهرة ، أمشي، أتحرك، ألبس الحجاب في بيتي، أتكلم العربية الفصحى، وكأن واحدة أخرى هي التي تفعل هذا وتلعب الدور نيابة عني ..." (ص ١٦٨).

استخدام العامية

ويبدو أن الفنانة المعتزلة لا تصدق هي أو من ينطقونها أن هناك مؤامرة كبرى على لغة القرآن، بل القرآن نفسه، ولذا تستنكر ضمنيًا أن يطلبوا – أي الجماعة المفترضة – عدم استخدام العامية، والتعوّد على الفصحى:

".. كانوا قد طلبوا مني التعود على نطق الفصحى، نهاني أكثر من مرة عن استخدام العامية، التي أصبحت في نظره جزءًا من مؤامرة كبرى على لغة القرآن الكريم " (ص ١٨٠ – ١٨١).

ثم تؤكد على أن الذين عرضوا عليها الحجاب أخبروها أن الفن حرام، وأنهم سيتكفلون بها، ولكنهم نكصوا عن وعدهم :

" التي عرضت عليّ اعتزال الفن – الذي هو حرام في الأول وفي الآخر– قالت إنهم لن يتركوني أموت من الجوع ...." (ص ١٧٢).

ولكنها تحاول كما تنطقها الرواية أن تشير إلى الحجاب بوصفه ذريعة الجنون:

" قد يقولون عن الحجاب أوصلني إلى الجنون، ما أسهل أن يقول الناس عن أي إنسان إنه مجنون! تكمن الصعوبة في أن يتصوروا أنه رجع عاقلًا كما كان ..." (ص ١٧٧).

وتواصل هجاءها للحجاب ولمن تسمّيهم لصوص البهجة، وسرّاق الفرح ، الذين يسرقون التماعة الفرح من عيون الأطفال ويفرضون على النساء التغطّي بالسواد، وعلى الرجال لبس الجلابيب البيضاء، وبغض النظر عن التغطية بالسواد، أو البياض فإن الرواية تتجاهل أن تنطق الفنانة المعتزلة بأن التعرّي على الشاشات والمسارح يمثل تجارة رقيق غير مشروعة، ورقّا من نوع جديد تباع فيه المرأة وتشترى لحساب لصوص متوحشين لا يعرفون الرحمة، ولا يهتز في قلوبهم ضمير:

" أحاول استبدالهم بكائنات الظل، بنواب الضمير، وكلاء الله - سبحانه وتعالى - على الأرض، من يعملون في الصمت والظلام باعتبارهم أصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كم تغيرت يا مهرة؟ ألم تقولي عنهم ذات يوم إنهم لصوص البهجة؟ وسرّاق الأفراح؟ والذين يحاولون تأميم التماعة الحياة في عيون الأطفال؟ أحاول أن أصبح جزءًا من النساء المغطيات بالملابس السوداء، كل امرأة كتلة من السواد، وما يرتديه الرجال مساحة هائلة من البياض، من الذي قرر القسمة غير العادلة السواد للمرأة والبياض للرجل، مع أن المرأة حياة، والرجل قد يدمرها؟" (ص ١٧٧).

الوكالة عن الله

هل عرف المسلمون من يسمّون بوكلاء الله على الأرض، مثلما عرفهم أتباع الكنيسة، وخاصة في العصور الوسطى؟ وهل الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر يعني الوكالة عن الله حقًا ؟

إن الوكيل عن الله فيما يفترض يملك إدخال الجنة والإخراج من النار، فهل يوجد في الإسلام مثل هذا الوكيل ؟

يبدو أن الفنانة المعتزلة تتجاهل أن أكثر من ٩٠٪ من المصريات يرتدين الحجاب، فهو لا يمثل مشكلة لهن، بل إن قرية العتقاء التي ينتسب إليها الكاتب، وصانع شخصية مهرة يعلم علم اليقين أنه لا توجد في قريته امرأة سافرة، وأن نساءها ارتدين الحجاب بوصفه أمرًا طبيعيًا، كان قائمًا في القرية على مدى الزمان، وكانت الأمهات والجدات يرتدين الملابس السوداء (البسمة) والطرح السوداء الحرير أو الشاش الأسود؛ لأنها تتحمّل العمل الشاق اللائي يبذلنه في الخبيز والطبيخ والغسيل وجلب الماء من النهر وأعمال الحقل من بذر وري وحصاد وجمع قطن وملخ ذرة وتنقية أرز ودراس ...إلخ، من غير أوامر الجماعة التي تعمل في الظلام أو النور. وحياتهن بعد ذلك مضيئة بالرضا والحمد والشكر لله، ولا يقتصر الأمر على العتقاء أو الضهرية وحدها، ولكنه يمتد إلى جميع قرى مصر شمالًا وجنوبًا، حيث يستوي في ذلك النساء المسلمات وغير المسلمات.

على كل حال فإن مهرة الفنانة المعتزلة، وهي تستشعر أنها أخطأت أو وقعت في أزمة بسبب الحجاب، تسرد واقعها بطريقة تؤدي إلى فهم معكوس للإسلام ومنهجه وقيمه، فنجد مهرة مثلًا تضع القرآن في مواجهة العصافير، وتنحاز إلى العصافير ضد القرآن، وكل ذلك من خلال حالة لم أسمع عنها على الأقل في دائرة إقامتي، وهي تركيب جرس للتنبيه في البيت يصدر صوتًا لقارئ يتلو القرآن بدلًا من صوت العصافير التي هجرت البيت الذي كانت مهرة سيدته في فترة ما، وعندما كانت زوجة لصاحبه قبل الطلاق :

" لاحظت أن الجرس تغيّر، كان صوته على شكل تغريد عصفور، أهدأ عندما أسمعه، أفتح الباب ثم أضغط على الجرس حتى أسمع التغريد

الصناعي الذي يشجيني، يحملني الصوت إلى حديقة خضراء واسعة، أو إلى شجرة عدد العصافير فوق أغصانها أكثر من عدد أوراقها الخضراء .

فوجئت بجرس جديد، لفتني أنه عبارة عن ترتيل لآيات من القرآن الكريم، صوت المقرئ(كذا؟) قوي، صحته موفورة، قلت لنفسي: أخذت العصافير من حياته إجازة، هجرته العصافير، هجّت من عشه احتجاجًا على تركي البيت..." (ص ١٧٩).

الحجاب كفن

صار القرآن مرادفًا للموت، وأيضًا صار الحجاب كفنًا، وصار الجلباب واللحية رمزًا للتخلف والبلاهة وإثارة الذهول:

"ذهل من الحجاب الذي ألفّ به نفسي ككفن، ووصلت إلى ما هو أبعد من الذهول بسبب منظره الذي توقعت أي شيء، وكل شيء، إلا هو : مصطفى يلبس جلبابًا أبيض، ويطلق لحية كثيفة، لم أره بها ولا حتى في صوره القديمة"(ص ١٨٠).

وتنسى السيدة مهرة أن أفضل العاملات في مجالات التدريس والبحث العلمي والجامعات والإعلام والصحافة والعمل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغيرها، من المحجبات اللاتي يشار إليهن بالبنان في كل الدول العربية والإسلامية، ولكنها فيما يبدو تعيش في بلاد أخرى !

وترصد السيدة مهرة مظاهر الموت التي يعيشها بيت مصطفى الذي كان زوجًا لها، فبعد أن كان رمزًا للبهجة قبل طلاقها، وحجابها وتقاعد صاحب البيت؛ تحوّل البيت إلى رمز للقبح والكآبة، وكأن الإسلام يسبب للمنتمين إليه القبح والكآبة ؛ لأنه – في زعم مهرة أو من ينطقها – ضد البهجة والفرح:

" أين ذهبت مملكتي ؟ دخلت غرفة النوم التي كانت غرفة نومي ، أضأت النور، لمبة واحدة كالحة تتدلى من السقف، كأنها مشنقة، مدلاة لشخص يريد أن ينتحر، أين الأنوار الحمراء؟ أين الأضواء البنفسجية، التي كانت تنعكس أضواء لمباتها على الجدران والسقف؟ أين الصور العارية الجميلة، التي قلت عنها في أول مرة حضرت فيها إلى الشقة، إنها رسومات فاجرة وداعرة، لكني ألفتها وأحببتها وأقمت معها صلة بعد فترة، وأصبحت جزءًا من مكونات حياتي؟ " (ص ١٨٢ – ١٨٣).

هكذا ترى مهرة بمنطقها، أو منطق من يحركها، مفهوم القبح والجمال!

- ٦ -
المرايا فتنة

وإذا كانت مهرة ترى بمنطقها مفهومًا خاصا للقبح والجمال، فإنها تقدّم حالات طريفة في انتقاد سلوك زوجها السابق بعد أن تقاعد بقرار من الجهة التي كان يعمل فيها، وارتدى الجلباب الأبيض، وأطلق لحيته، وصار يرتاد المسجد، ويخضع لأوامر الجماعة المفترضة في الرواية، فتشير إلى افتقاد البيت للمرايا التي تعد فتنة .. (كيف؟) تقول مهرة:

" لم تعد في البيت مرآة واحدة، المرايا التي كانت هنا لا أعرف مصيرها، سألته عن المرايا. قال إنها فتنة. تعجبت ..." (ص ١٨٦).

وفي الرواية كلام يثير الضحك عن المرايا، لا أظن أن مسلمًا حقيقيًا، يتوقف عنده أو يفكر فيه، ولم يصل إلى الأسماع شيء منه:

" بعد أن تحجبت، وقيل لي إن المرايا فتنة، ويجب أن أتخلص منها، فكّرت في ذلك، لم أكن متأكدة من السير في الطريق حتى النهاية التي يريدونها لي، أجّلت موضوع تحطيم المرايا، أنظر إلى جسدي في حلة من التيه والخيلاء، لم أكن أتصور الحياة بدون المرايا" (ص ٢٤٢).

القرفة والينسون

تبدو الرواية من خلال رؤية شخصياتها للإسلاميين مثيرة للضحك فعلًا، كأنهم قوم يعيشون خارج التاريخ والجغرافيا جميعًا، ولنتأمل على سبيل المثال ما يقال عن موقف المتدينين الإسلاميين، من الشاي والقهوة

والتدخين، والمشروبات الأخرى مثل الحلبة والقرفة والينسون وغيرها، تقول مهرة على لسان مصطفى زوجها السابق :

" لا أعرف ماذا بينهم وبين الشاي والقهوة، أما التدخين فهو من المحرمات" (ص ١٨٧).

ويتحدث مصطفى وهو ضابط سابق، عن طبيعة الحياة داخل المسجد، التي تثير استغراب مهرة، واستهجانها للمشروبات والأغذية المتاحة هناك:

" في المسجد لم يكن أمامنا غير الكلام ، والبوفيه لا يقدّم سوى الحلبة والقرفة والينسون؛ لأن الشاي والقهوة مشروبان غير مستحبين، والتدخين محرّم صراحة، ويطلبون من البقالين الذين يترددون على المساجد رفض المتاجرة فيه، ليس بسبب الأضرار الناتجة عنه، وإن جاع أحدهم لا يجد غير الأرز باللبن والمهلبية لتناولهما، ومن يحضر زوجته معه يقولوا " عنها جماعته "(كذا!، ولعله ظن أن من أداة جزم فجزم الفعل "يقولوا"، وهي هنا اسم موصول)، ولا تنادى إلا باسم ابنها الذكر، فاسم المرأة عورة مثل صورتها وصوتها ، تذهب الزوجة إلى الحريم، فالاختلاط خروج عن الدين...." (ص ٢١٧).

وأظن أن الناس في العتقاء والضهرية وعموم البحيرة ومصر والبلاد العربية، يستخدمون شيئًا اسمه الكنية حين ينادون على الرجل أو المرأة، فيقولون: أبو فلان وأم فلان، ووصف الزوجة بالجماعة تقليد موروث منذ قرون في أرجاء مصر وخاصة في الريف ولا علاقة له بالإرهابيين الذين تتحدث عنهم الرواية أو المتطرفين في تعبيرها المخفّف.

المسجد المثالي

ويبدو المسجد في تصور الرواية وحديث مصطفى عنه حالة مثالية للمساجد يتمناها الناس فعلًا، ولكنه حالة لا وجود لها على أرض الواقع بعد أن فرضت الوزارة التابعة لها على المساجد أن تفتح أبوابها قبل الصلاة بدقائق وتغلقها بعدها بدقائق بينما الكنائس مفتوحة على مدار الأربع والعشرين ساعة:

" لافتة خارجية تقول إنه مسجد ، ولكن بالداخل مجتمعًا : مستشفى يعالج المرضى بأسعار رمزية، معملًا لإجراء التحاليل الطبية، مختبر أشعة، محلًا لصناعة النظارات؛ قاعة مناسبات ضخمة تؤجّر بمبالغ لا تكاد تذكر، في مناسبات الأفراح والأحزان، والزواج أو الوفاة ؛ كتّابا لتحفيظ القرآن الكريم نهارًا، ومركزًا للدروس الخصوصية الجماعية ليلًا، كوافير للمحجبات، محلًا لملابس المحجبات، محلًا لتجارة السبح والجلابيب البيضاء، مؤسسة لا تعرف من ينفق عليها، ولا من الذي يديرها، حتى التليفون موجود، يمكنك الاتصال من خلاله بأي مكان في الداخل أو الخارج، وبأسعار أقل من أسعار السنترال الحكومي"(ص ٢١٥).

ويواصل مصطفي حديثه المثالي عن واقع المسجد في خياله الروائي، أو خيال من ينطقه، فما يقوله لا أساس له في الواقع :

" هل يجرؤ أحد على تعطيل أمر يخص مسجدًا ؟ مطلوب التعامل مع المكان كمكتب خاص، أسعار خدمات المسجد لا بد من أنها مدعومة...." (ص ٢١٥).

ألا يستحق من يصنع مثل هذه المؤسسة الشاملة – إذا كان لها وجود – الشكر ؛ لأنه يخفف العبء على الحكومة الفاشلة التي لا تنهض بمسؤولياتها تجاه المواطنين ومتطلباتهم؟!!

إلغاء العقل

ترصد مهرة ما جرى لزوجها السابق، وتُرجعه إلى تحوله الديني، فتراه إلغاء للعقل، وسفرًا إلى العصور الوسطى، ولا أدري هل تقصد العصور الوسطى المظلمة في أوربا ، أو العصور الوسطى المضيئة في بلاد الإسلام؟ :

" لم أصدق ما سمعته، هل وصل مصطفى إلى هذه الحال؟ ..... أبعد كل هذا يلفّ مصطفى ويدور، ويلغي عقله ويتوه، ويسافر إلى العصور الوسطى؟" (ص ١٩٢).

وبناء على هذا التصور للتدين، فإنها تنقل عن مصطفى فهمه للعلاقة بين المسلمين وغيرهم التي تتلخص في ضرورة محاربة الصليبيين، ولا ندري المقصود بهم هل هم من يعيشون بيننا من غير المسلمين، أم أولئك الذين استعمروا الشعوب الشرقية وأذلّوها؟

" كل المؤامرات في ذهنه المتعب، تلفّ وتدور، تروح وتجيء، تفترق وتلتقي عند الحرب المقدسة ضد الصليبيين، قال لي: محمد في مواجهة المسيح، من سينتصر في النهاية؟" (ص ١٩٤).

هل قال أحد في الجماعات الإسلامية إن محمدًا في مواجهة المسيح؟ إن أي مسلم أيًا كان توصيفه بمنطق الرواية : معتدلًا أو متطرفًا أو إرهابيًا، لابد أن يؤمن بالمسيح –عليه السلام – نبيًا ورسولًا رفعه الله إليه، فلا مجال هنا للقول إن محمدًا ضد المسيح، أهو الافتئات على المسلمين والتحامل عليهم ونسبة معتقدات خاطئة إليهم؟ يبدو أن الرواية تستبيح كل شيء في سبيل الوصول إلى تثبيت تهمة التعصب عند المسلمين وعدوانيتهم ضد المخالفين لهم في الدين .

جائزة تقديرية

وتعيدنا الرواية إلى أجواء أفلام عادل إمام عما يسمّيه الإرهاب، وتؤكد على اعتقاد المسلمين باستباحة أموال النصارى، وهو اعتقاد خاطئ لا يستطيع أن يصرح به مسلم، حتى لو كان من تلك الجماعات التي تصفها الأجهزة بالإرهابية :

" سألني : ممّ أخاف؟ إن كنت أنفقت المبلغ، فأهلًا ومرحبًا، أموالهم مستباحة لنا، ماذا يملكون معك؟ هل يجرؤ واحد منهم على الاعتداء عليك، إنه يكون يوم القيامة في مصر لو جرى ذلك" (ص ١٩٦).

وأعتقد أنه يكفي ما سبق من اقتباسات الرواية التي فازت بجائزة تقديرية من مؤسسة خاصة وتعادل في قيمتها المادية قيمة الجائزة التقديرية التي تمنحها الدولة وأكثر، ولكنها بالنسبة للقيمة المعنوية التي تتحقق لمانح الجائزة كبيرة للغاية، فهي رواية لا تترك صغيرة ولا كبيرة في حياة المسلمين إلا وانتقدتها أو أدانتها أو جعلتها مجافية للإنسانية والأخلاق والتحضر حتى الشاي والقهوة - كما رأينا- على لسان الشخصيات كلها، لم نر شخصية تقف موقف المعارضة للشخصيات الأخرى أو تدلي بحديث مغاير ينصف الإسلام والمسلمين، ولكن المسلم في الرواية إرهابي ومتخلف ومنغلق ويضطهد المخالف، ويهدده بالقتل أو الخطف حتى يضطره إلى الهرب بجلده إلى الغرب، حيث يلقى هناك الحفاوة والاهتمام والحماية.

المواهب الضحلة

إن انحدار الفن إلى الدعاية الفجّة يشكّل مزلقًا خطيرًا في مسيرة الهبوط الأدبي والثقافي التي يشهدها أدبنا العربي الحديث، بعد أن تصدّر

مشهده أصحاب المواهب الضحلة، وطلاب المغانم الرخيصة، والمعادون للقيم الإنسانية عامة التي جاء بها الإسلام لإقامة العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

إن تحوّل الأدباء والفنانين إلى آلات في يد المستبدين والمتعصبين وخونة القيم الإنسانية ، يمثل إرهاصًا بانتكاسة خطيرة في مسيرة البشرية عامة والأمة الإسلامية خاصة ، وهو ما يحتم على أصحاب الضمائر الحية أن ينهضوا لمواجهة هذا الأدب المضاد، والرواية المضادة بالكشف والتوضيح، وتقديم أدب ينحاز للإنسان والحقيقة ولا يظلم الإسلام والمسلمين.

إن صاحب الجائزة وهو يكافئ صاحب هذه الرواية يحقق مكسبًا معنويًا كبيرًا في حرب التشويه ضد الإسلام والمسلمين، ولا ضير أن تكون بقية الجوائز التي يمنحها بعيدة عن التعبير عن أهدافه المباشرة، فالفائزون بصورة أو أخرى لن ينتقدوه ولن يحاسبوه على تصرفاته التي قد تكون ضد مصلحة المجتمع أو البلاد أو يلزموا الصمت في أحسن الأحوال.

والسؤال الذي يأتي الآن على طرف اللسان: ماذا يفعل أصحاب المال الطيب لتشجيع التعبير عن قيم الإسلام؟ إن الجوائز التي أنشأها بعض أصحاب المال الإسلامي ذهب معظمها للأسف إلى يساريين أو علمانيين أو ملحدين، بل إنها اختطفت في هيئات التحكيم لحساب هذه الاتجاهات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .